

# شعرية النثر ونثرية الشعر (\*)

## طراد الكبيسي

اللغة استعمالاً خاصاً، غير مباشر في توليد الدلالة على الطائر الذي لسعه، وهو الزنبور.

وهذا يشبه تخصيص الجرجاني للشعرية في قول الشاعر «وسالت بأعناق المطي الأباطح» بالفعل «سال». فالشاعر هنا، لم يُعرب في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح. فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل «سال» فعلاً للأباطح ثم عداه بالباء، ثم بأن أدخل الأعناق في البيت. فقال «بأعناق المطي»، ولم يقل بالمطي، ولو قال «سالت المطي في الأباطح» لم يكن شيئاً<sup>(٤)</sup>.

وهكذا القول في الفعل «سال» في البيت:

سالت عليه شعاب الحبي حين دعا  
أنصاره بوجوه كالدنانير

فجأة الغرابة في هذا البيت ليس هو مطلق معنى «سال» ولكن في تعديته بـ (على) بأن جعله فعلاً لقوله «شعاب الحبي»<sup>(٥)</sup>.

وهذا أيضاً ما ذهب إليه ابن رشد في تعريفه الشعر بأنه القول المُعبر عن القول الحقيقي. وما يُستدل على أن القول الشعري هو المُعبر، أنه إذا عُبر القول الحقيقي، سمي شعراً أو قولاً شعرياً، ووُجد له فعل الشعر، مثل قول القائل:

ولما قضينا من منى كل حاجة  
ومسح بالأركان من هو مسح  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا  
وسالت بأعناق المطي الأباطح

(٤) دلائل الأعجاز للجرجاني: ص ١١٢.

(٥) نفسه: ص ١١٢.

رؤي عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، أنه رجع الى أبيه حسان وهو صبي، يبكي ويقول: «لسعني طائر» فقال حسان: «صفه يا بُني». فقال: «كأنه مُلتف في بُردِي حبرة» وكان لسعه زنبور. فقال حسان: «قال ابني الشعر ورب الكعبة».

وُعلّق الجرجاني على هذا فيقول: «أفلا تراه جعل هذا التشبيه مما يُستدل به على مقدار قوة الطبع، ويُجعل عياراً في الفرق بين الذهن المُستعد للشعر وغير المُستعد له.»<sup>(٦)</sup>

وفي الحقيقة، إن حساناً قال: «قال ابني الشعر...» ولم يجعل التشبيه في قول ابنه عياراً في الفرق بين الذهن المُستعد للشعر وغير المُستعد له، كما ذهب الجرجاني، بل جعله عياراً في الشعر أو القول الشعري. والذي جعل حساناً يقول ما قال، هو قول ابنه: «مُلتف». وما يجعل هذه العبارة «مُلتف في بُردِي حبرة» شعرية في رأي حسان، أن ابنه لو قال: «طائر فيه كوشي الحبرة» لم يكن له هذا الموقع<sup>(٧)</sup> رغم أن التعبيرين يُؤديان الغرض، أي: «الهيئة الخاصة في ذلك الوشي والصُنع وصورة الزنبور في اكتسائه بهما»<sup>(٨)</sup>. أي أن الذي يجعل التعبير الأول شعرياً هو من جهة المجاز في قوله «مُلتف»، حيث نُقل اللفظ الى غير ما وُضع له أصلاً، واستعمل

(\*) كان يمكن أن يضاف إلى عنوان هذه المقالة: (خلاصة أولية لقراءة جديدة في مفهوم الشعر عند العرب) ولكن خشية التطويل تكفي بهذه الإشارة، ولنا عودة إلى هذا الموضوع بمزيد من التفصيل والتوثيق.

(١) أسرار البلاغة للجرجاني: ص ٢١٩.

(٢) نفسه: ص ٢١٩.

(٣) نفسه: ص ٢٢٠.

إنما صار شعراً من قِبَلِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ «أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ  
الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا، وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ» بَدَلَ قَوْلِهِ: «تَحَدَّثْنَا  
وَمَشَيْنَا»<sup>(٦)</sup>. أَي أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ التَّعْبِيرَ غَيْرَ الْمُبَاشِرِ (الْمَجَازِي) بَدَلًا مِنْ  
التَّعْبِيرِ الْمُبَاشِرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى السَّرِيرَةِ وَسَهُولَةِ وَلِينِ.

وهذه الاستعارة مثل هذه الكناية في قول عمر بن أبي ربيعة:  
«بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ». «وَأَيُّهَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هَذَا الْقَوْلَ  
هَذَا بَدَلَ قَوْلِهِ: طَوِيلَةُ الْعُنُقِ»<sup>(٧)</sup> وهذا يعني: «هناك عاملٌ قارٌّ - ثابتٌ  
لا يَتَغَيَّرُ وَهُوَ أَنَّ الشَّعْرَ يُعَبَّرُ دَوْمًا عَنِ الْمَفَاهِيمِ وَالْأَشْيَاءِ بِشَكْلِ غَيْرِ  
مُبَاشِرٍ، أَوْ أَنَّ الشَّعْرَ يَقُولُ شَيْئًا وَيَعْنِي شَيْئًا آخَرَ»<sup>(٨)</sup>.

نخلص مما تقدّم إلى المسألة المُحدّدة التي قصدنا الكلام فيها،  
وهي أن العرب لم يكونوا - كما ذهب كثيرون - يميّزون الشعر بالوزن  
والقافية وحسب «فكثير من الأقاويل التي تسمّى «أشعاراً» ليس فيها  
من معنى الشعريّة إلاّ الوزن فقط» وإتّما الشعرُ «باخراج القول غير  
مُخْرَجِ الْعَادَةِ»<sup>(٩)</sup>.

وفي هذا يستوي القول الموزون وغير الموزون، شعرياً - ولكن  
بدرجات - من جهتين:

الأولى: من جهة أنّ الوزن ليس هو من الفصاحة والبلاغة في  
شيء، وليس به ما كان الكلام كلاماً، ولا به كان كلاماً خيراً من  
كلام<sup>(١٠)</sup>.

الثانية: من جهة أنّ الشعر بما هو شعر، يجب أن يُنظر إليه من  
جهة العمل والصنعة لا من جهة قائله، أي بما هو نصٌّ روعي في  
الترتيب على «نسق مخصوص» وصولاً إلى صورة وهيئة مُحدّدة. وهذه  
لا تكون من جهة الألفاظ بذاتها، ولا من جهة المعاني بذاتها، ولكن  
من جهة التآليف والترتيب أي حين «يُعلّقُ الكَلِمُ بعضها ببعض  
ويُنبي بعضها على بعض». وبالتالي يكون الفاصل بين كلام  
وكلام، وما هو شعري وغير شعري هو «الأحكام التي تُحدّثُ  
بالتآليف والترتيب»<sup>(١١)</sup>. والذي لا شك فيه أن المقصود هنا، ليس  
الوزن. لأن الوزن لا مدخل له فيما يكون الكلام كلاماً به<sup>(١٢)</sup>.

صحيح أنه لم يقل أحد من الكتاب والنقاد العرب، بالتخلي عن  
الوزن، أو إنّ الوزن لا ضرورة له. وعدّوا الوزن أحد الأركان  
الأساسية للشعر - وهذا ما يقول به معظم كتّاب الشعرية اليوم -  
ولكن لم يروا، في الوقت نفسه، أنّ كلّ كلامٍ موزون مُقَفَى، شعر.

(٦) ضمن كتاب فن الشعر لأرسطو: ص ٢٤٢.

(٧) نفسه: ص ٢٤٣.

(٨) مايكل ريفاتير: «سيمبوتيقا الشعر: دلالة قصيدة» ضمن كتاب مدخل إلى  
السيمبوتيقا - منشورات عيون - الدار البيضاء / ١٩٨٧ ص ٥١.

(٩) ابن رشد: المصدر نفسه: ص ٢٠٤ و ٢٤٣.

(١٠) دلائل الأعجاز: ص ٤١٥ - ٤١٦.

(١١) نفسه: ص ١٠٩.

(١٢) نفسه: ص ٣٣٧.

قال الجاحظ، وقد سمع أحدهم يمدح البيتين التاليين:<sup>(١٣)</sup>  
لا تحسبن الموت موت البلى  
فإنما الموت سؤال الرجال  
كلاهما موت ولكن ذاك

أفطع من ذلك لذلّ السؤال  
قال: «وأنا أزعّم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً.»  
أي أنّ الجاحظ وغيره، يرون الشعر في التغييرات التي تحدث  
للغة في الكلام الخاص، أو حين استعمال اللغة على نحو خاص غير  
استعمالها المعياري (المعجمي): في القلب والحذف والزيادة  
والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب  
ومن السلب إلى الإيجاب، وفي التشبيه والتمثيل والإشارة  
والاستعارة... وبالجملية: جميع الأنواع التي تسمى عندنا  
مجازاً<sup>(١٤)</sup>. ولهذا فقد ميّز العرب الشعر بأنه يُشعر بما لا يُشعر به  
غيره، من الصنعة اللفظية في نظم الكلام<sup>(١٥)</sup>.

وقد انتقد السجلهاسي الرأي الذي يقول بأنّ القول الشعري هو  
المُقَفَى فقط. وذهب إلى أنّ جوهر الشعر هو التخيل. و«التخيل  
هو المحاكاة والتمثيل، وهو عمود الشعر إذ كان به جوهر القول  
الشعري وطبيعته وجوده بالفعل» مُفسّراً عدّهم القول الشعري بأنه  
القول المقفَى فقط، بالتزامهم الوزن الذي هو الفصل المقفوم عندهم  
للشعر والمفهم جوهره، لأنهم لم يشعروا بعدد بالمعنى الآخر، وهو  
التخيل والمحاكاة، وأنه عمود الشعر وجوهره.

أما التخيل عند السجلهاسي فهو من جنس البيان الذي يشتمل  
على التشبيه والاستعارة والماتلة (التمثيل) والمجاز. وهذا الجنس  
(التخيل)، هو موضوع الصناعة الشعرية، وموضوع الصناعة في  
الجملة هو الشيء الذي فيه يُنظر، وعن أعراضه الذاتية يُبحث. وإذ  
كان الشعر: هو الكلام المُخَيَّل المُؤَلَّف من أقوال موزونة متساوية  
وعند العرب مُقَفَاة - كما ذهب ابن سينا - فكل معنى من هذه  
المعاني، له صناعة تُنظر فيه إمّا بالتجزئة، وإمّا بالكلية. ولأن  
التخيل هو جوهرية المُشْتَرَك للجميع، ينبغي أن يكون موضوعها  
ومحلّ نظرها<sup>(١٦)</sup>.

وإلى هذا أيضاً، ذهب حازم القرطاجني عندما عرف الشعر بأنه  
كلام مُخَيَّل ومشمتمل على الغرابة. وما كان «خلياً من الغرابة» أجدر  
ألا يُسمى شعراً، وإن كان موزوناً مقفَى، إذ المقصود بالشعر معدوم

(١٣) عن كتاب: نظرية النظم: تاريخ وتطور للد. حاتم الضامن - الموسوعة  
الصغيرة - ع (٤٧) ١٩٧٩.

(١٤) ابن رشد: المصدر نفسه: ص ٢٤٣.

(١٥) إعجاز القرآن - للباقلاني - ص ٧٦.

(١٦) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع - للسجلهاسي. تحقيق علال  
الغازي - الرباط ١٩٨٠ ص ٤٠٧ و ٢١٨.

والسجلماسي، حيث تكون ألفية ابن مالك في النحو، مثلاً، المنظومة «شعراً» من النثر، بينما يكون الكثير من كتابات المتصوفة كابن عربي والنفري التوحيدي (في الإشارات الإلهية) والمكتوبية «نثراً» من الشعر. والطريف أن نذكر هنا، أن الباقلائي، في معرض مُباينة القرآن لجميع كلام العرب، قَسَمَ الكلام الفني عند العرب الى عِدَّة أقسام، هي:

- ١ - الشعر الموزون المقفى.
- ٢ - الكلام الموزون غير المقفى.
- ٣ - الكلام المُسجّع.
- ٤ - الكلام الموزون غير المُسجّع.
- ٥ - الكلام المرسل.

وذلك عندما قال «إنَّ الطُّرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم الى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المُسجّع، ثم إلى مُعدل موزون غير مُسجّع، ثم إلى ما يُرسل إرسالاً». . . أو في قوله أيضاً: «قد علمنا أن كلامهم (يقصد كلام العرب) ينقسم إلى نظمٍ ونثرٍ، وكلامٍ مقفًى غير موزون، وكلامٍ موزون غير مقفًى، ونظمٍ ليس بمقفًى كالخطب والسجع، ونظمٍ مقفًى موزون له روي»<sup>(١٧)</sup>.

(٢٠) إعجاز القرآن: ص ٣٥، و٦٢ ويُنظر كذلك كتاب الشعرية العربية لأدونيس - دار الآداب - بيروت ١٩٨٥ / ص ٣٩. وكذلك موسيقى الشعر العربي للد. شكري عياد/ ص ٣٠٣.

منه، «فإن الأوزان مما يتقوم به الشعر ويُعدُّ من جملة جواهره»<sup>(١٧)</sup> ولكن الوزن وحده لا يخلق شعراً. لأن الوزن «ليس من الفصاحة والبلاغة في شيء» كما ذهب الجرجاني، وأن سرّ النظم في المجاز، إذ «أن محاسن الكلام معظمها، إن لم نقل كلها متفرعة عن صناعة المجاز وأدواته، وراجعة إليها»<sup>(١٨)</sup>.

نخلص مما تقدّم الى أن نظرية «الشعر = كلامٌ موزون مقفًى، والنثر = كلام (مرسل أو مسجوع) غير موزون»، رغم اقرارها بالتغاير بين الشعر والنثر، لم ترسم، في حدود ما قدّمته، مسافة هذا التغاير. إذ لم يعد الوزن والقافية كافيين لحسم تنازع الشعرية بين الشعر والنثر أو «القول الشعري» بتعبير الفارابي، أي النثر الذي يشتمل على جميع خصائص الشعرية إلا الوزن. وخطأ المصادر العربية - إن صحَّ تقديرنا - أنها لم تعتمد المقارنة بين الشعر وهذا المستوى من النثر الذي «ضبطت خصائصه الفنية مما يسمح بضبط الفرق، كماً ونوعاً، بينه وبين الشعر»<sup>(١٩)</sup>.

بعبارة أخرى، إن وضع الشعر ككلام موزون مقفًى، في الطرف المقابل من النثر، ككلام غير موزون مرسل أو مسجوع، أدّى الى إلغاء جملة الخصائص الشعرية الجوهرية في الأدب الفني الأخر، وبالتالي الى إلغاء تصوّر آخر معمول به في ضوء النزعات الشعرية، والنثرية الخاصة بالنفس، على نحو ما بين الفارابي والقرطاجني

(١٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تحقيق الحبيب بن الخوجة بيروت (ط ٣) ١٩٨٦ - ص ٦٣.

(١٨) دلائل الأعجاز: ص ٤١٥ - ٤١٦.

(١٩) يُنظر حمادي حمود: «ملاحظات حول مفهوم الشعر عند العرب» فصله من كراس الجامعة التونسية. ع (٢) ص ٢١٩.

دار الآداب تقدم

الرائية الفلسطينية: سحر خليفة

في طبعته الجديدة من راياتها

• لم نعد جوارى لكم

• الصبّار

• عبّاد الشمس

صدر لها حديثاً

مذكرات امرأة غير واقعية